الذاكرة المفقودة: من اختراع «فلسطين» إلى اكتشاف «لبنان»

هشام البستاني*

لم يَستفزّني شيء منذ زمن، بقدْر ما استفزّتْني ندوةُ «مستقبل العلاقات السورية ـ اللبنانية» المَنشورةُ في العدد الماضي من الآداب. ولأنّ المشاركين في الندوة سوريون ومثقفون تحديدًا، فقد هالني ما وَرَدَ من معلومات خاطئة وتركيبِ تحليلاتٍ سياسية بناءً عليها، وكأنّ اتخاذَ موقفٍ معارض ضد نظام ما (هو هنا النظام السوري) يستدعي أوتوماتيكيًا تبنّي مقولة «عَدوٌّ عدوّي صديقي» في سياقٍ إطلاقيّ.

وفوق كل ذلك، يصبح «عدوُّ العدوّ» هذا نازلاً من المرّيخ ومفصولاً عن التاريخ، بلا ماضٍ ولا تنطبق عليه قوانينُ النشوء والتطور. بل ويصبح ضروريًا على «السوري» أن يأخذَ صكَّ براءةٍ من «سوريته» وأن يزاودَ على المزاودين حتى لا «يطّلع برّه» ـ لا خارج «لبنان» فقط (فهذا حاصلٌ لا محالةَ) ولكنْ خارج «الوعي اللبناني» أو «الوعي بلبنان» الذي هو بالضرورة انعكاسٌ للوعي بـ «سورية» والوعي بـ «فلسطين» والوعي بـ «الأردن،» أي الوعي المزوّر بالقُطْر كمشروع وطني منفصل السياق عن التاريخ والجغرافيا وحتى المصلحة. وهكذا تتموضع هذه «المنظوماتُ» لا بصفتها امتدادًا بعضها لبعض بل بوصفها وحداتٍ منفصلةً، دولَ جوار، مثلَها مثل «إسرائيل.»

إنّه وعيُ القُطْر ومشروعُ القُطْر، الذي تَحوّل الآن ليصبح شعارَ المرحلة وبرنامجَها. وهو المدخل الأساسي لإعادة تشكيل الجغرافيا، التي هلّل لها كولن باول قبل الغزو الأميركي للعراق: تفكيك «وعي الوطن» إلى «وعي الكانتون والطائفة،» وتفكيك الإقليم إلى أطراف، وتقسيم هذه الأخيرة الى هوامش، وتركيبها جميعًا على المركز الوحيد: «إسرائيل.»

❖ ❖ ❖

الفيلم: تذكار (Memento).[1] يبدأ هذا الفيلم، بخلاف المعتاد في الأفلام، من النهاية، وينتهي عند البداية. بطل الفيلم مصابٌ بمرض نادر: إذ لا تَحْتفظ ذاكرتُه بأيّ شيء إلا لدقائق، ثم تختفي الأحداثُ والأشخاصُ إلى الأبد. ولذلك فهو يَعْمد إلى تسجيل الأشياء الهامة على قصاصات ورقية، ويصوِّر كلَّ شخص يلتقيه بكاميرا البولورويد، مسجِّلاً على وجهها الآخر اسمَ الشخص وانطباعَه عنه. أما الحقائق «المُطْلقة» في نظره، فيسجِّلها بالوشم على جسده. فلنبدأ، من البداية، إذن.

«البلدان الجاران،» يا جماعة الخير، ليسا «بلديْن» أصلاً! وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى البلديْن الجاريْن الآخريْن اللذيْن يقعان جنوبَ «البلديْن الجاريْن.» أيَذْكُر أحدٌ منكم شيئًا اسمُه: سورية؟ أَمْ أنّ عقلنا القُطْري لم يعد يستوعب من هذه الكلمة سوى **القُطْر** الذي يَحْمل هذا الاسمَ نفسَه؟

❖ ❖ ❖

فلاش باك ١: اتفاقية سايكس ـ بيكو، ٩ أيار (مايو) ١٩١٦:

المادة الأولى: إنّ فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدَّتان لأنْ تعترفا وتحميا دولةً عربيةً برئاسة رئيسٍ عربي في المنطقتين «أ» (داخلية سوريا) و«ب» (داخلية العراق)... يكون لفرنسا في منطقة (أ) ولإنكلترا في منطقة (ب) حقُّ الأولويةُ في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وإنكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظَّفين الأجانب بناءً على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية: يُباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (سوريا الساحلية) [أيْ ما يسمّى الآن لبنان]، ولإنكلترا في المنطقة الحمراء (منطقة البصرة)، إنشاءُ ما ترغبان به من شكل الحكم، مباشرةً أو بالواسطة، أو ما ترغبان به من المراقبة، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة: تُنشأ إدارةٌ دوليةٌ في المنطقة السمراء (فلسطين)، يعيَّن شكلُها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع بقيّة الحلفاء وممثّلي شريف مكة.

المادة التاسعة: من المتَّفق عليه أنّ الحكومة الفرنسية لا تُجري مفاوضةً في أيّ وقت للتنازل عن حقوقها، ولا تعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء [لبنان] لدولةٍ أخرى سوى للدولة أو لحلف الدول العربية، بدون أن توافق على ذلك مقدَّمًا حكومةُ جلالة الملك التي تتعهد بمثل ذلك للحكومة الفرنسية في المنطقة الحمراء.[2]

سوريا الساحلية؟

يا الله ما أبعدَ عامَ ١٩١٦ عنّا! ربما يذكِّرنا المعلِّم أبو سليمان، جدُّ نزيه أبو عفش، بأنّه لم يكن يذهب إلى «لبنان،» بل كان يذهب «قبلي.»[3] وربما يذكِّرنا جدّي صبحي عبد القادر البستاني عندما

---

* ـ كاتب وطبيب أسنان من الأردن، وناشط ضد التطبيع والعولمة الرأسمالية.

١ ـ Memento، إخراج: كريستوفر نولان، بطولة: غاي پيرس وكاري آن موس وجو بانتوليانو، إنتاج سنة ٢٠٠٠.

٢ ـ نقلاً عن: ثائر دوري، «إعادة تشكيل المشرق العربي،» **كنعان** (النشرة الإلكترونية)، العدد ٦١٣، ٤ أيار ٢٠٠٥ www.kanaanonline.org/articles/00613.pdf

٣ ـ نزيه أبو عفش، «١١ سبتمبر الثاني. يوميات العار،» الآداب، العدد ٣ ـ ٥، ٢٠٠٥، ص ١٠.

هَرَبَ من دمشق إلى عمّان عامَ ١٩١٦، إنقاذًا لرأسه من الإعدام عبر ميناءيْ بيروت وحيفا، بأنّ أحدًا لم يستوقفْه ليقول له «وين رايح،» ولم يَطْلب منه أيُّ شاويش حدوديّ إبرازَ جوازِ سفر وتأشيرة! وربّما نتذكّر أنّ ثمة عائلةً كبيرةً تَسْكن سهولَ حوران هي عائلة «الزعبي،» قَسَّمَها المدعوّان سايكس وبيكو إلى قسمين: أحدُهما جاء حظُّه أسفلَ الخطّ وتحوّل تلقائيًا إلى «أردني» (يتمركز أفرادُه حاليًا في مدينة الرمثا)، والقسم الآخر فوق الخط تحوّل مباشرةً إلى «سوري» (يتمركز أفرادُه في مدينة درعا)... مع أنّ القسمَيْن عائلة واحدة!

تُرى هل زار أحدُكم الجامعَ الازهر؟ فهناك غرفٌ مخصّصة لطالبي العلم أيامَ كان الجامع جامعًا، والطلبةُ يتوزّعون فيها بحسب منطقتهم الجغرافية. سألتُ الدليل السياحي: «أين كان يَدْرس الطلبةُ الأردنيون؟» فأجاب: «هناك في تلك الغرفة، إلى اليسار من باحة الجامع.» و«السوريون؟» سألتُ. «في نفس الغرفة،» أجاب. ازدادت دهشتي: «واللبنانيون والفلسطينيون؟». أجاب دون أن يرفّ له جفن: «في الغرفة ذاتها. إنّها غرفة الشوام!»

❖ ❖ ❖

فلاش باك ٢: مقطع من تقرير لجنة كِنْج ـ كراين ١٩١٩/٨/٢٨:

اتّضح لهذه اللجنة أنّ الشعور العدائي نحو الصهيونية ليس قاصرًا على فلسطين فحسب بل يَشْمل سكّانَ سوريا بوجه عامّ؛ ذلك أنّ ٧٢ في المائة من مجموع العرائض التي تناولتها اللجنةُ في سوريا مضادّةٌ للصهيونية، ولم يَنَلْ مطلبٌ نسبةً أعلى من هذه النسبة سوى الوحدة السورية والاستقلال.[١]

الفيلم: «سِجِلّ شعب.»[٢] يَظْهر فيه محمد عزّة دروزة ليذكّرنا بأنّ المقرَّر الأول للمؤتمر العربي الأول في مواجهة وعد بلفور وقراراتِ التقسيم كان أنّ فلسطين هي جزء لا يتجزّأ من سورية، وأنّ المؤتمر يطالب باستقلال سورية ككل وكوحدة واحدة.

الآن لا أحد يتذكر. لا أحد **يريد** أن يتذكر. وثمة أجيالٌ تربّتْ على فكرة صهيونية تقول إنّ «فلسطين» أرضٌ «متميزة» عمّا حولها ومنذ الأزل، وإنْ لا امتدادَ بين هذه الأرض وما حولها من مناطق. تُرى لمصلحةِ مَنْ فصلُ جنوب سوريا عن وطنها الأم وإعلانُها كيانًا عابرًا للتاريخ والجغرافيا؟

❖ ❖ ❖

فلاش باك ٣: من مقرَّرات المؤتمر العربي الفلسطيني الأول، القدس (١٩١٩/١/٢٧ ـ ١٩١٩/٢/١٠):

إنّ فلسطين هي جزء من سوريا العربية، وهي لم تنفصلْ عنها في أيّ وقت من الأوقات، ونحن مرتبطون بها بروابطَ قوميةٍ ودينيةٍ ولغويةٍ وطبيعيةٍ واقتصاديةٍ وجغرافية. إنّ مقاطعة جنوب سوريا [أي فلسطين] يجب ألاّ تنفصل عن الحكومة العربية السورية المستقلة، ويجب أن تكون حرةً من الحماية والهيمنة الاجنبية.[٣]

نَغْرق في التفاصيل، وفي الأعلام الوطنية الكذّابة. لِمَ «نَنْعمي» حين تضيق العبارةُ وتتّسع الرؤية (لعلّها الرؤيا)؟ «راجع، راجع يتعمّر، راجع لبنان»؟؟ أتعتقدون أنّ ذلك سيتحقّق بمجرّد أن يحطَّ عون على أرض بيروت قادمًا من بلاد مستعمِريه السابقين ليتبجّح بأنّ «التحرير» قد تحقّق في الكونغرس الأميركي ومجلس الأمن بقانون محاسبة سورية والقرار ١٥٥٩، وبأنّ مقتلَ الحريري لَم يفعلْ شيئًا سوى أنّه «سَرَّعَ» هذا التحرير؟![٤] ها هو عون بإشارة مباشرة يدلّنا على المستفيد الأول، وربما على الفاعل. وها هي جثّةُ الحريري تتحول إلى مطيّةٍ لحلفاء ـ فرقاء: طائفيين وفاشيين واشتراكيين وديموقراطيين ورأسماليين وحلفاء لإسرائيل وحلفاء لأميركا وحلفاء لفرنسا، كلُّ ما يَجْمعهم هو عداؤهم للذاكرة، ذاكرةِ الحرب، ذاكرةِ تحالفاتهم السابقة والحالية، ذاكرةِ الدماء التي ما زالت ساخنةً على أنصال الفؤوس والسكاكين، وذاكرةِ الوطن ... لا القُطْر.

«لكيْ لا ننسى»؟؟ والأرقام تتوالى على شاشة تلفزيون «المستقبل،» لأنّه في اللحظة التي ستتوقف فيها هذه الأرقامُ خمسَ دقائق متوالية، سيَفْقد البطلُ الذاكرةَ، وسينسى كيف يقوم حزبُ البيك «الاشتراكي» بالسعي إلى الإفراج عن سمير جعجع، وإلى التحالف مع تيّاره. وسينسى كيف أنّ أصحابَ قناة المستقبل وتيّارهم يتحالفون هم أيضًا مع الفاشية الطائفية. وسننسى مَنْ وقف أمام الكونغرس ليستقوي بالغريب ويتمّمَ زواجَ الاستبضاع. وسننسى معتقلَ الخيام وصيحاتِ الألم التي كانت تؤرّق أهالي الضيّعَ المجاورة. وسننسى قانا. وسننسى صبرا وشاتيلا. وسنسوّي وسطَ بيروت بالأرض، لتَنْهض ذاكرةٌ جديدةٌ باريسيةٌ. وسننسى حجّةَ البطريرك إلى واشنطن. وسننسى عُمّالاً مساكين رُمُوا إلى حتفهم من فوق بنايات شَيَّدوها بعرقهم.

نسي حسين العودات كلَّ ذلك، وأصبح تحالفُ الرأسمال مع الطائفية والفاشية «حركةَ احتجاج ديموقراطيةً أصيلة.»[٥] ونسي ميشيل كيلو كلَّ ذلك، مصرِّحًا بـ «أنّ الكلام الذي قيل بلسان المعارضة اللبنانية أكّد أنّها لا ترى نفسَها في السياق الأميركي،»[٦] وبأنّ «أميركا ليست وراء الديموقراطية الفلسطينية واللبنانية»[٧] (أية ديموقراطية؟ ديموقراطية الطوائف والميليشيات والاحتلال؟!)

«السوري» حسين العودات يصف ما يجري بأنّه «عودةُ لبنان إلى لبنان،»[٨] بينما «السوري» ميشيل كيلو يصبح أكثر تشاؤمًا بعد مظاهرة تأييد المقاومة (٨ آذار) لأنّه استنتج أنّ الجيش السوري سينسحب حقًّا «لكنّ سوريا لن تنسحب.» هكذا إذًا: لا يُعْجبكم انسحابُ الطبقةِ الحاكمة القُطْرية وأدواتها الأمنية، بل تريدون انفكاكًا شاملاً شعبيًا/مجتمعيًا/اقتصاديًا، وانسحاب سوريا من سوريا وعودة لبنان إلى ذاكرةٍ مخترَعة؟ والمعلّم أبو سليمان، جدُّ نزيه أبو عفش؟ ربما آن أوانُ إلقائه من فوق إحدى بنايات السوليدير إلى حتفه الجميل.

---

١ ـ مكتب السجلاّت العامة ـ لندن، واردة في سجلاّت «النكبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات http://nakba.sis.gov.ps/index.html

٢ ـ «سجلّ شعب،» سيناريو وإخراج قيس الزبيدي، إنتاج منظمة التحرير الفلسطينية.

٣ ـ A.W. Kayyali, **Patestine - A Modern History**, pp.60 - 3 نقلاً عن: http://www.aqsa.org.uk/chapterContents.aspx?id=44

٤ ـ **المستقبل**، الأحد ٨ أيار ٢٠٠٥.

٥ ـ ٨ ـ ندوة «مستقبل العلاقات السورية ـ اللبنانية،» الآداب ٣ ـ ٥، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

في مثل هذه الأيام من القرن الماضي، كانت الدولةُ القوميةُ قيدَ التشكّل، لا بفعل السياسة والمشاعر والشعارات، بل بالمفهوم المادي، وأعني: تشكُّل السوق القومية. وكانت عائلاتُ التّجّار الدمشقيين تتمدّد إلى خارج المركز الشامي لتستقرَّ في الأطراف، ولتفتحَ آفاقَ التجارة معها، فيتبلورَ أحدُ أهمّ أركان نشوء الدول القومية. وحتى هذه اللحظة تستطيع أن تجد أحفادَ هؤلاء التجّار في بيروت وإربد وجرش والكرك ونابلس، وصولاً إلى معانْ التي تنقسم حتى اليوم إلى حارتيْن: الحارة الشامية والحارة الحجازية. وتتكامل شبكةُ التجارة بين عرب الشام وعرب الحجاز إلى الجنوب والعراق إلى الشرق. ونحن الآن، بعد قرن من الهزائم والإحباطات، أصبحنا نتحدث عن انسحاب سوريا من سوريا وعودة لبنان الى لبنان، ويقارن عمر أميرلاي سوريةَ بالانتداب الفرنسي ويقول إنّ حزب اللّه هو «وكيلُ الانتداب السوري [!]»[١]

أين هي ماركسيتُكُم أيُّها اليساريون الديموقراطيون؟ لكنّ «حركة اليسار الديموقراطي» في لبنان تصرِّح: «إنّنا ماضون في معركة انتزاع القرار الوطني اللبناني المستقلّ. وسننجح في ذلك، كما نجحتْ من قَبْلنا القيادةُ الوطنيةُ الفلسطينية، وعلى رأسها ياسر عرفات، في رفض مقولة 'فلسطين جنوب سوريا'، ومَضَتْ في معركتها لاسترجاع فلسطين [!]»[٢]

❖ ❖ ❖

فلاش باك ٤: «فلسطين» في المفهوم الشعبي العربي قبل اختراعها:

• من قرارات المؤتمر السوري العامّ (١٩١٩/٧/٢): «نحن الموقّعين أدناه، أعضاءَ المؤتمر السوري العامّ المجتمعين في دمشق في الثاني من تموز عامَ ١٩١٩، والمؤلّفين من مندوبي مناطق سوريا الثلاث وهي المناطق الجنوبية والشرقية والغربية... أولاً: إنّنا نطالب بالاستقلال السياسي الكامل والمُطْلق لسوريا ضمن الحدود التالية: من الشمال، سلسلة جبال طوروس. من الجنوب، الخط الواصل من رفح إلى الجوف، متتبِّعًا الحدودَ السورية الحجازية أسفلَ العقبة. من الشرق، الحدُّ المشكّل من نهري الفرات والخابور، والخط الممتد من مسافة شرق أبو كمال الى مسافة شرق الجوف. ومن الغرب، البحر الابيض المتوسط ... سابعًا: إنّنا نَرْفض الادّعاءاتِ الصهيونيةَ لتأسيس دولة يهودية في ذلك القسم من جنوب سوريا المسمَّى فلسطين، ونحن نعارض أيَّ هجرة يهودية إلى أيّ جزء من أجزاء البلاد. ثامنًا: إنّنا نطالب بأنْ لا يكون هناك أيُّ تقسيم لسوريا، أو أيُّ فصل لفلسطين أو المناطق الساحلية الغربية أو لبنان عن الدولة الأمّ، ونطالب بالحفاظ على وحدة البلاد تحت كل الظروف.»[٣]

•• من قرارات المؤتمر الثاني للوطنيين العرب في فلسطين (١٩٢٠/٢/٢٧): «إنّ أهالي سوريا الشمالية والساحلية يَعْتبرون سوريا الجنوبية [فلسطين] قطعةً متمِّمةً لسوريا.»[٤]

••• من مذكّرة الجمعية الإسلامية ـ المسيحية في يافا (١٩١٩): «وأَعجبُ من هذا أنّ فلسطين المسكينةَ التعسةَ المنكودةَ الحظِّ صارت ألعوبةً بيد السياسيين تتناولها كما شاءت أهواؤهم. فإنّهم لم يكتفوا بتصريحاتهم بوجوب إعطاء فلسطين لليهود، بل جعلوا يقترحون اقتراحاتٍ لتبرهن لنا على [سلخ] الشعب العربي الموجود في فلسطين عن سورية وجعلها وحدةً سياسيةً منفصلة ـ ولعمري لا ندري ما هي الوحدة المنفصلة ـ تحت إشراف إنجلترا. فيكونون باقتراحاتهم هذه أولاً: قد أعطوا فلسطين لليهود. ثانيًا: جزّأوها وسلخوها عن سورية، وبانسلاخها قلَّ عددُها وكَثُرَ عددُ اليهود وأصبحت لهم الأكثريةُ في كل شيء.»[٥]

•••• من مذكّرة الجمعية الإسلامية ـ المسيحية (١٩١٩/٨/٢٠): «في مكاتباتنا السابقة طَلَبْنا عدمَ فصل فلسطين عن سورية، واحتجَجْنا على ما يُنوَى من تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود. وعندما زارت اللجنةُ الأميركية هذا البلدَ تأكَّد لديها أنّ جميع سكان سورية، من الجنوب إلى الشمال، يَرْفضون بالإجماع قبولَ الحركة الصهيونية... ونَطْلب عدمَ فصل فلسطين عن سورية بحال من الأحوال.»[٦]

لأنّنا ننسى، ولأنّ الفيلم يريد أن يذكّرنا بأنّ «البداية» هي الأساس، وبأنّنا لسنا بلا تاريخ، فإنّ علينا أن نسجِّل كلَّ ما ورد أعلاه بالوشم على أجسادنا، علّنا نتذكّر يومًا بأنّنا لم نأتِ على ظهرِ صحنٍ طائرٍ، ولم نتخلّقْ داخل أنبوبةٍ مخبريةٍ في ثقبٍ أسود. مَنْ هو، إذن، الذي يهوِّم خارج التاريخ؟ ومَنْ هو اللاواقعي؟ ومَنْ هو الذي «يناضل» من أجل محو ذاكرته ليولَدَ من جديد متطهِّرًا من آثام العروبة والجغرافيا... والتاريخ؟ أنحن حمقى إلى هذه الدرجة؟ «النُّوَرُ السوريون» هم نحن جميعًا يا صديقي نزيه أبو عفش... نحن جميعًا.

عمّان

---

١ ـ ندوة «مستقبل العلاقات السورية ـ اللبنانية،» الآداب ٣ ـ ٥، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

٢ ـ وارد في: سماح إدريس، «كي لا يكون الآتي أعظم،» المصدر السابق، ص ٣٧.

٣ ـ من قرارات المؤتمر السوري العام، ١٩١٩/٧/٢، وهو البرلمان السوري المنعقد أثناء إدارة الأمير فيصل، http://www.aqsa.org.uk/chapterContents.aspx?id=46 نقلاً عن: George Antonius, **The Arab Awakening**, pp. 440-2

٤ ـ من قرارات المؤتمر الثاني للوطنيين العرب من فلسطين، والمنعقد في دمشق في ١٩٢٠/٢/٢٧، نقلاً عن: عيسى السفري، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية**، ص ٣٤، واردة في سجلّات «النكبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات http://nakba.sis.gov.ps/index.html

٥ ـ من مذكّرة الجمعية الإسلامية ـ المسيحية في يافا إلى الجنرال وطسن، المديرَ العامّ للبلاد، حول الهجرة والنوايا الصهيونية في فلسطين، يافا ١٩١٩. مكتب السجلّات العامة ـ لندن، واردة في سجلّات «النكبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات.

٦ ـ من مذكرة الجمعية الإسلامية ـ المسيحية إلى الحاكم العسكري البريطاني بالقدس برفض فكرة الوطن اليهودي وفصل فلسطين عن سورية، القدس ـ ١٩١٩/٨/٢٠، نقلاً عن **يقظة العرب** لجورج أنطونيوس، نقلاً عن كتاب **مارك سايكس: حياته ورسائله** لشن لزلي، واردة في سجلّات «النكبة» في موقع الهيئة العامة للاستعلامات.